مجلة قضايا تاريخية

المجلد 05 العدد 02 تاريخ الصدور : 2020/12/22 م

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

جوانب من الحياة الاجتماعية في الجزائر خلال القرن 19م :
المقاهي والحمامات أنموذجا

د. بن الشيخ حكيم

جامعة الدكتور يحي فارس – المدية-

الملخص بالعربية:

لابد للباحث و المؤرخ أن يقف على حقيقة كثير من العادات والمظاهر الاجتماعية التي ألفها المجتمع الجزائري ليس فقط في أيامنا هذه ولكن كذلك منذ العهد العثماني و من ثمة الاحتلال الفرنسي، والتي منها المقاهي و الحمامات حيث تتميز القهوة عن غيرها من المشروبات بتاريخ ثقافي في العالم العربي الإسلامي. والمقاهي في الجزائر و في غيرها من البلاد العربية كان لها دورها في أثراء الحياة الاجتماعية الثقافية والفنية والسياسية والتجارية منذ عقود بعيدة. وللحمامات في مدينة الجزائر وفي غيرها من المدن أغراض اجتماعية هامة إضافة إلى عملها التنظيفي، وكانت المدينة تتوفر على مصادر مائية هامّة تزود الحمامات .

الملخص بالإنجليزية:

Abstract

The researcher and the historian must be aware of the many social customs and traditions created by Algerian society not only in our time but also since the Ottoman era and from there the French occupation, including coffee shops and bathrooms where coffee is distinguished from other beverages in the cultural history of the Arab Islamic world. Coffee shops in Algeria and other Arab countries have played a role in enriching social, cultural, artistic, political and commercial life for decades. Hammamet in Algeria and other cities have important social purposes, in addition to cleaning works, and the city has important water sources that provide bathrooms.

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

تمهيد:

يجدر بالدارس في هذا المقام أن يقف على حقيقة كثير من العادات و المظاهر الاجتماعية التي ألفها المجتمع الجزائري ليس فقط في أيامنا هذه ولكن كذلك منذ العهد العثماني و من ثمة الاحتلال الفرنسي ، و الواقع فإن هذا الموضوع على الرغم من بعض الدراسات السابقة له غير أنه يبقى من الموضوعات المهمة التي يجب على الباحث والمؤرخ أن يقف عندها متتبعا و متصفحا و ناقدا ، حتى يكون بحثه أكاديميا يفي بغرض البحث والإستقصاء للحقيقة التاريخية من مضانها.و لعل من أهمها مشروب القهوة (1) و انتشار المقاهي و كذا الحمامات التي فرضتها الظروف وأملتها الوقائع و الأحداث التي عايشها المجتمع الجزائري .

و لست أدعي إن قلت بأن مثل هكذا موضوعات تعدّ من الأهمية بمكان لأنها تستنطق العمق الاجتماعي بمظاهره و تقف على حقيقة التفاعل الذي كان بين أفراده في انشغلاتهم و تصوراتهم و كذا في عاداتهم و تقاليدهم.

– المقاهي:

تعريفها:

مشروب اعتُبر لفترة طويلة دواء إلى شراب من المشروبات الساخنة، واصلت القهوة تطورها وانتشارها جغرافيا واجتماعيا إلى أن نجحتْ في انتزاع فضاء خاص بها تقريبا ويحمل اسمها أيضا حيث يُسمى ''القهوة'' في المغرب العربي و''المقهى'' في اللغة العربية الفصحى .

وبعيدا عن الخرافات والأساطير التي تنسبُ اكتشاف هذا المشروب إلى أحد الرعاة في منطقة القرن الإفريقي، في اليمن في أغلب الروايات، لاحظ أن ماعزه كانوا يحتفظون بحيويتهم وطاقتهم بمجرد ما يتناولون حباتها المتساقطة على العشب لينقل اكتشافه إلى غيره من الناس، يُجمع الباحثون على أن أول ظهور للقهوة عبر التاريخ كان في إثيوبيا و''اليمن السعيد'' وأن زراعته انطلقت في المنطقة الجنوبية من البحر الأحمر في القرن 7م .

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

هذا و تتميز القهوة عن غيرها من المشروبات بتاريخ ثقافي في العالم العربي – الإسلامي لا يمكن أن نجد له مثيلا في الشاي أو في غيرها من المشروبات التي جاءت من موطنها الأصلي إلى هذه المنطقة. و ربما كانت طبيعة المشروب و الهيئة التي كان يشرب فيها وراء هذا الاختلاف الواسع في الموقف من القهوة ، الذي قسم الفقهاء و الأدباء خلال عدة قرون بما أدى إلى تركم نتاج فقهي و أدبي لا يزال يستحق الدراسة و التمحيص و كذلك أدى إلى حراك اجتماعي نتيجة لظهر دور القهوة ثم المقاهي فيما بعد ، وما صاحبها فيما بعد لمظاهر جديدة كالموسيقى و الغناء و المسرح و غيرها .

و قد جرت عدة نقاشات بين كثير من العلماء في مكة المكرمة (2) و كذلك في بلاد الشام و القاهرة حول جواز شرب القهوة أم لا لما لهذا المشروب من تأثير على العقل و البدن ، و قد كفره كثير منهم في فتاوى كثيرة قبل أن تصل القهوة غلى القبول و التحليل عند جموع العلماء و الفقهاء نزولا عند دراسات الأطباء و المختصين .

كما تحولت القهوة فيما بعد إلى مشروب الكتّاب و المدرسين و المطالعين للكتب و المعلمين للعلوم الأدبية و الصناعية و الشعراء و أهل الأدب (3).

– القهوة و المقاهي كظاهرة إجتماعية إبان إحتلال الجزائر:

من دون الخوض فيما إذا كان أصل القهوة شرقياً أم غربياً، كانت المقاهي بديكوراتها التقليدية الجميلة و بأرائكها وكراسيها و لمرتاديها ، حيث حملت بين طياتها جمالية المكان والروح المنبعثة من جدرانها و فضاءاتها تعبيراً أميناً لأهم مرحلة من مراحل التحول السياسي والاجتماعي في أهم المدن الجزائرية عراقة والتي بدأ فيها ظهور منارات للفكر التنويري في الشعر و الحكم الشعبية و كذا قضايا السياسة و الحديث عن مشاكل الاستعمار الفرنسي و دواعي الإنعتاق و التحرر ، فالمقاهي في الجزائر و في غيرها من البلاد العربية كان لها دورها في أثراء الحياة الثقافية والفنية والسياسية والتجارية منذ عقود بعيدة .فالكثير منها تنتشر في مناطق وشوارع وأزقة المدن الجزائرية ببساطتها و بأشكالها ومظاهرها.

ويرى الكثير من الأوروبيين و الفرنسيين في كتاباتهم أن المقاهي، كانت تمثل مجالا مهما

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

للتلاقي بين أفراد المجتمع الواحد ، ففيها يتعلم الأجنبي لغة هذا الشعب و تعابيره اليومية (4) ويذكر الرحالة الذين زاروا مدينة الجزائر ، أنها كانت تحتوي على حوالي 60 مقهى يقع أغلبها في الجزء الأعلى من القصبة وأهمها مقهى شارع البحرية (L'amirauté) التي كانت تتسع لعدد كبير من الزوار ، وفي المقهى يلتقي الزنجي والعربي والقبائلي و المزابي و البسكري والفرنسي بلباسه الرسمي الأوروبي ، واللافت للانتباه هو أن الإدارة الاستعمارية قد حولت الكثير من المقاهي من طابعها الشرقي الفريد إلى النمط الأوروبي الدخيل ذي الهندسة العمرانية المعقدة ، وهي نفس الأساليب التي انتهجتها مع المساجد والمنازل وغيرها .

تعد شهادة الأب دَانْ عن وجود المقاهي في الجزائر من أقدم الشهادات في فترة كان فيها احتساءُ القهوة في قمة الموضة في مختلف أرجاء الإمبراطورية العثمانية؛ من آسيا الوسطى إلى تلمسان مرورا ببيروت ودمشق والحجاز، بل ومكة والمدينة المنورة خصوصا، والقاهرة وطرابلس الغرب وتونس بعد أن ساهمت الطرق الصوفية والشاذلية على وجه الخصوص في إشاعة شرب القهوة على المستوى الجماهيري. وذلك لأن أهل التصوف، الذين تعلموا فن شرب القهوة من اليمنيين الذين كانوا في أواخر القرن 15م، إلى جانب الفُرْس، الأسبق من غيرهم في العالم الإسلامي في هذا المجال، كان المتصوفون يرون في احتساء القهوة أداةً وضعها القدر بين أيديهم لمساعدتهم على مقاومة النوم أثناء ليالي الذِّكر والمدح الطويلة والابتهال إلى الله. والتعبد.

ويصف الرحالة الأوروبيون المقهى الجزائري لقول أحدهم : « ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار، دون أن يهتم بمحله الكبير ، ويستقبل الزائر الأوروبي قائلا : { مساء الخير يا سيدي – Bonsoir Mr } وأخاه في الدين { وعليكم السلام } ثم ينادي في اتجاه القبو { جب قهوة – جيب سبسي } ، ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الأسبوع ، ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ مما يجعل أعضائها ينظرون إلى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منه الحماس .. فرواد المقاهي يفضلون الاستماع إلى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم وتناسب الأحلام التي يتسلمون إليها في لذة . » (5)

و يذكر السيد سعد الله أن الحفلات كانت تقام في المقاهي ، واستمر هذا طيلة فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، غير أن طبيعة

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

الموسيقى والألفاظ قد تغيرت وأصبحت تقدم فنا غير متخلق إرضاء للرغبات الجنسية ولجلب الشباب الأوروبي، ولاسيما من العسكريين ، وقد سجل الأوروبيون هذه السهرات واعتبروها فنا جزائريا دخيلا خال من كل إبداع (6) ، « كانت القهوة تقدم في فناجين صغيرة على صحون صغيرة مفضضة حتى لا يؤذى الأصابع ، وزخرفت القاعة وحيطانها بالأسلحة من جميع الأنواع .. وقد حضر عشر نساء لأداء الرقص على الطريقة الحضرية ، ثم بدأت الحفلة والرقص الفرنسي، ودامت الحفلة إلى الصباح ».

وقد وصف الأوروبيون الذين زاروا مدينة الجزائر أن الحفلات التي كانت تقام في المقاهي ، وقد أعجب هؤلاء بهذه المقاهي ووصفوها في كتاباتهم ومنها مقهى كانت تقع جوار جامع كتشاوة (الكاتدرائية المسيحية سابقا) لشهرتها ونكهة قهوتها ورقي مجتمعها وعزف جوقها الموسيقي (7).

و المعروف أن مقاهي مدينة الجزائر كانت تختص بتقديم نوع معين من الفنون الموسيقية، ولاسيما خلال شهر رمضان حين يطول السهر وتخرج النساء أحيانا، و كذلك كان كثير من المدّاحين ينتشرون في مختلف مقاهي المدينة الشعبية بدءا ب «القهوة الكبيرة» أكبر مقاهي المدينة وأفخمها وأجملها على الإطلاق إلى «قهوة البوزة» و«قهوة العريش» بحي باب عزون، وكان هؤلاء المداحون يستعملون آلات الإيقاع مثل الدربوكة والبندير.

ولعبت قوات الاحتلال دورا هاما في نشر ثقافة المقهى في المناطق الداخلية للبلاد بإنشائها عددا من هذه المحَلاّت الترفيهية حيثما حلَّتْ الفيالق والكتائب والحاميات الفرنسية في العمق الجزائري، وذلك لتسلية الجنود وتوفير مُتنفَّسَات لهم خلال أوقات الراحة ...كما تطورت الوظائف الاجتماعية للمقهى العربي التقليدي فأصبح في نفس الوقت مكانا للتسلية والاستراحة وسوقا للعمل ولعقد الصفقات التجارية وللوساطة في النزاعات الاجتماعية وللزواج والطلاق والخطوبات... مثلما تضاعفت وتنوعت الشرائح الاجتماعية التي أصبحت تتعاطى مع المقهى. بل أصبح هذا الهيكل الاجتماعي الجديد قناةً لنشر التقدّم والتعريف بالتكنولوجيا الحديثة في المجال الصوتي، على سبيل المثال، عن طريق الفونوغراف وفي مجال الصورة بواسطة الصُّوَر ثم التسجيلات السينمائية.،

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

كما تحوَّل إلى منبرٍ سياسي لتحريك الهمم وللتوعية السياسية والدينية...إلخ .

و مهما يكن من أمر فإن المقاهي على عهد الاستعمار الفرنسي لم تبق تحافظ على طابعها الشرقي القديم و لاسيما على عهد العثمانيين حيث كانت تمثل أصالة وتراث المدينة ذي الطباع الجزائرية الإسلامية لاعتبارات سياسية و إيديولوجية.

- **الحمامات:**

- **تعريفها:**

تنطق كلمة حمام بتشديد الميم والجمع حمامات إذ دخلت هذه الكلمة القاموس الفرنسي بلفظ (Hamam) حتى تداول استعمالها(8) بالإضافة إلى أنها وردت كلمة حميم في القرآن الكريم في الآية :" وسقوا ماءا حميما " (9) ، والحميم هو الماء الحار ، إذ أن المعنى الأصلي لكلمة حمام هو المسخن ، أما الاستحمام فهو الاغتسال ، ويمكننا القول أن الاستحمام هو النظافة والتطهر ، ومن أرقى الحمامات من كانت شاهقة وعذبة المياه ومعتدلة الحرارة و مفهومها قديما يعود إلى الكلمة الإغريقية " ترموس" التي معناها الساخن و كذلك تدل كلمة باليسترا الأماكن العمومية لممارسة الحركات الجسمانية داخل الحمامات الإغريق أما على العهد الروماني فهي تعني مكان الاغتسال العمومي ، و هو ما يؤكد حقيقة أهمية هذه الأماكن عبر العصور(10).

إن الحمامات تعد من بين أرقى المنشآت المعمارية المدنية وهذا لما لها من أهمية داخل المدينة ، إذ قال فيها ابن خلدون :" **نجد المتنعمين بالحمامات إذ تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور**" .

اهتم المسلمون بتشييد الحمامات بنوعيها الخاص والعام ، لحاجتهم الصحية والدينية والاجتماعية لمثل هذه المرافق ، غير أننا لا نملك المعلومات الكافية عن حمامات المغرب الإسلامي ، وحتى الأندلسية منها ، إلا أنها تتشابه من حيث بنيتها وعمارتها ، في وجود ثلاث غرف (الغرفة الباردة ، الغرفة الدافئة،

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

الغرفة الساخنة). و لا أحد يعرف على وجه التحديد تاريخ إنشاء أول حمام و لا حتى الأساليب التي استخدمها الأولون ، و ما وصلنا إلى اليوم لا يكاد يعدو مجرد استنتاجات لكثير من الباحثين الذين ارجعوا أصل الحمام إلى حضارات قديمة كالحضارة المصرية و الإغريقية.

– أهمية الحمام في الجزائر في العهد العثماني:

غير أن الحمامات العثمانية الموجودة بالجزائر تشترك في نمطها المعماري مع الحمامات التركية حسب شهادة وليم سبنسر بقوله" الحمامات العمومية في الجزائر تستحق الذكر ، ولكنه ونظرا لأنها تشبه بدقة حمامات القسطنطينية "(11) ، كما أنه يذكر بأن إنشاء الحمامات يعود إلى عهد حسن باشا بن خير الدين ، ومحمد بن صالح رايس ، وهي مزودة بالمياه الساخنة والباردة ، إذ أن ما ذكره ألبرت دفولكس (Albert De voulex) ، حين قام بذكر أسماء عديدة لحمامات مدينة الجزائر والتي بنية بطبيعة الحال في الفترة العثمانية ، فكان عددها ستة عشر حماما ، مبرزا شوارعها وكل تفاصيلها ، وهي : حمام باب الواد ، والذي انشيء من طرف مصطفى ابن الياس ، حمام الشويهد ، حمام القصبة الجديدة ، حمام سيدي الشريف ، حمام القاعة ، حمام العرصة ، حمام السبوعة ، حمام سركاجي القائم حاليا وحمام كوشة النصارى ، ويعد حمام سيدنا(12) 10 هـ – 16 م أقدم حمامات مدينة الجزائر ويماثله تصميما حمام القصبة وذلك لاحتوائهما على العناصر الرئيسية لتسيير الحمام ، إذ أشرف على إنشائها كل من حسن باشا ومحمد صالح رايس قائد البحرية الجزائرية كما ذكرنا آنفا، لتصل إلى ستون حماما مع نهاية القرن السادس عشر حسب رواية هايدو .

لقد كانت للحمامات في مدينة الجزائر أغراض اجتماعية هامة ، إضافة إلى عملها التنظيفي، و كانت المدينة تتوفر على مصادر مائية هامّة تزود الحمامات ، و قد شكّل الحمام المكان المفضل الذي يتنظف الجزائريون فيه جسديا و دينيا و صحيا .

كانت النساء في مدينة الجزائر يذهبن إلى الحمام مرة كل أسبوع ، و كان حينها الحمام متنفسا مهّما لبعض السيدات اللواتي يعرضن فيه أزيائهن، حيث كانت برجوازيات مدينة الجزائر يلبسن أشرطة ثقيلة من الذهب حول

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

الوسط والعنق، وكذلك يحملن عقودا مرصعة بالمرجان إضافة إلى تبادل أخبار العائلات، و في العهد العثماني كان يلتقي فيه الرجال و النساء الحضر كل في قسمه المنفصل و عادة ما تكون الحمامات أماكن اللقاءات و الحكايات و تبادل الأخبار و الاتفاقيات حول الزواج و الطلاق و مراسيم الدفن .

و قد اهتم قبل ذلك الرومان ببناء الحمامات ذات الأشكال المختلفة (كالغرف والأحواض، والجدران والمرافق العامة...إلخ) ، كما حرص الرومان كذلك على إقامة هذه الحمامات في المدن الجزائرية التي طالها وجودهم ، وذلك لضمان صحتهم وراحة بالهم بالإضافة إلى كونها متنفسا لقضاء أوقات الفراغ وإزالة أتعاب العمل الصباحي ففيها يتحدثون في شتّى الميادين، فكانت تساهم إلى حد ما في تكوين الجمهور فكريا (13).

-الأبعاد الاجتماعية و الدينية للحمامات:

قد شغل الحمام كذلك في العهد العثماني جزءا هاما من قصر الداي ومن إدارة الجيش، وعادة ما كان الحمام يتشكل من طابقين ، الطابق الأرضي حيث يوضع قاعدة الحمام وموقده ، ثم يأتي الطابق الأول الذي يخصص للمرافق الصحية وقاعة الاستحمام والمرحاض .

هذا و تعد الحمامات في الجزائر و خاصة في مدينة الجزائر من بين أهم الأولويات في الحياة الاجتماعية للفرد في المجتمع الجزائري ، وإن خصصنا الذكر سنسلط الضوء على المرأة الجزائرية بشكل كبير ، إذ كانت النساء في مدينة الجزائر يذهبن إلى الحمام مرة كل أسبوع (14) ، فعرف الحمام بالمكان المميز يتنظف من مياهه الجزائريون ، وهذا إن دل إنما يدل على أن المدينة كانت تتوفر على مصادر مائية هامة وكثيرة لتزود الحمامات بالمياه الكافية ، مع العلم أن داخل هاته الحمامات كانت هناك البعض من النساء يروجن لبيع تجارتهن الخاصة والمتمثلة في جلب الثياب والحلي لبيعها داخل الحمام .

وكذلك يوجد في هذا الجزء خزان الماء بجزأيه البارد و الحار، ولعّل المكان الأساسي في الحمام كان يقع بالقاعة الحارة التي فيها عيون الماء و بها أروقة الحرارة والمداخن كما زودت القاعة بنوافذ ، وكذلك كانت هناك قاعة دافئة موجودة بين المكان الحار والبارد تقع في

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

مساحة قدرها حوالي 14م مربع وأخيرا يأتي ترتيب القاعة الباردة (15).

« ويقع تسخين فضاء القاعة بواسطة قنوات توجد تحت أرضيتها يسري داخلها دخان ساخن يصل مباشرة من الفرناق ويقع إخراجه عن طريق شاروق يوجد في سطح المعلم ، كما تتحصل هذه القاعة على بخار الماء الساخن من القاعة المحاذية لها المسماة العرّاقة أو البيت الساخنة . » (16)

و عادة تعطى للمستحمين الرجال الفوطة ، وهي قطعة مستطيلة من القماش يلتحف بها الرجل ليغطي النصف الأسفل من بدنه قبل الدخول للاغتسال ، حيث يكون في خدمته الطبّاب (وهو الرجل أو الخادم الذي توكل إليه مهمة النظافة والتدليك والتمسيد) ، ثم يرتدي القبقاب وهو حذاء خشبي يقيه من الانزلاق .(17)

و عموما فالحمامات أماكن مبنية بعناية حتى يستفيد منها السكان فهي مضاءة و نظيفة و مجّهزة بالماء البارد و المسخّن ، و إلى جانب الحمامات العادية توجد الحمامات البخارية التي تجعل جسم المستحم خفيفا و ناعما ، وفي العهد التركي كان الخدم يقومون بمسد الجسم بالأيدي أو بواسطة قفازات ، وللإشارة فإن حمامات النساء كانت تشبه حمامات الرجال غير أن العادات بينهم كانت تختلف ، حيث تقوم النساء بالتزين باستخدام مواد مختلفة (18) .

و قد اهتم العرب عبر تاريخهم بتقاليد كثيرة منها استعمال المياه الساخنة من خلال زيارة الحمامات وترددهم عليها و هو تقليد ديني (19) مهّم فضلا عن كونها أماكن مهمّة للتداوي والعلاج من عدة أمراض ، غير أن الجزائريين لم يقلدوا هذه الأماكن حتى أنهم لم يرمّموا الحمامات القديمة التي استخدمها الرومان في السابق ، وحين استعمرت الجزائر من قبل فرنسا قامت فرق كثيرة بعملية إعادة تهيئة الأحواض الرئيسية ، وخصصت لأجل ذلك أموال طائلة.

و قد وصف وليام سبنسر بوصف الحمامات الخاصة بالنساء وإقبالهن عليها ، إذ أنها تشبه حمامات الرجال إلى حد كبير ، غير أن النساء يتلقين خدمات أفضل من الرجال ، بحيث تقوم بعض الخادمات من النسوة باستعمال البخور والعطور ورش النساء المستحمات بماء الزهر و يبخون عليهن بالمسك والعطور، إذ كانت النساء يتناولن المشروبات والفاكهة

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

وحلويات أخرى كحلوة الحلقوم وأصابع العروس كما تعزف الموسيقى . كما التزمن كذلك ببعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة آنذاك ، فيتم حجز الحمام لمدة خمسة عشر يوما بغرض تحميم العروس ، حيث تخرج من بيت أهلها رفقة الكثير من النساء جيرانها ، مصحوبين بفرقة موسيقية (الزرّنة والدفوف)، إذ أن هذا الأمر مازال قائما إلى يومنا هذا ، بالإضافة إلى أن الحمام في مدينة الجزائر كان ذو أهمية كبيرة ، وهذا راجع طبعا إلى الأحداث الواقعة داخله ، و قد جاء ذلك في عدة قوانين فرنسية كانت قد صدرت منذ 60 سنة (*) أي بمقتضى المرسوم الصادر في 16 جوان 1851م والذي نص على الحفاظ على المصادر الطبيعية والمعدنية (20).

– أهمية الحمامات الوقائية و العلاجية في الجزائر:

وقد كان لهذه الحمامات المعدنية في مدينة الجزائر أهمية علاجية هامة ، لأنها كانت تساعد في التخفيف من معاناة المرضى خاصة المتعلقة بالعظام والمفاصل ، وعادة ما كانت تتشكل الحمامات من حوضين إحداهما للرجال والآخر للنساء ، والمسلم الجزائري كان يفضّل دائما المياه الغنية بالعناصر المعدنية كالكبريت وذلك للوقاية من عدة أمراض كالجرب والأمراض الجلدية الأخرى ، وكذلك فعل مع ماشيته التي كانت تعاني من نفس الأسباب وللحفاظ على نصاعة صوفها أيضا، كما خصصت بعض الأحواض المعدنية لصالح المساكين الذين ليس لديهم أموال في مقابل التفكير لتهيئة أحواض خاصة لصالح أوروبي الجزائر مع إقامة مساكن لإقامة الوافدين إلى الحمامات وتعيين أطبّاء ومراقبين لمعاينة مياه هذه الحمامات وتحديد أسعار لكل استعمال (21) ، لم تكن تشكّل الحمامات بالنسبة للمسلمين الجزائريين أداة ترويح عن النفس بل كانت كذلك وسيلة فعالة للوقاية و الإستطباب من عدة أمراض لاسيما منها الحادة والمزمنة (22). و انطلاقا من الحديث النبوي الشريف الذي ينص على أن " **النظافة من الإيمان** " يمكن أن نعرف أهمية الحمامات عند المسلمين الذين ربطوا اعتباراتهم العمرانية بتوافر المياه وكثرت بذلك المرافق ذات الخدمات المشتركة مثل العيون و الحدائق و الحمامات. و للحمام في الجزائر وفي غيرها أهمية كبيرة ولاسيما في التداوي من كثير من الأمراض أو

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

الحيلولة دون وقوعها ، حيث يصف الرحالة فيلهلم طريقة علاج شاهدها في الحمام في الشكل التالي : « دخل إلى الحمام شاب انتفخت لوزتاه عند فكه الأسفل ، واستحم ثم اتجه إلى رجل كبير السن كان جالسا في الرواق ، ومع أنه لم يكن طبيبا فقد اضطجع الشاب أمامه ، فوضع يديه فوق لوزتيه وضغط عليهما بشدة رافعا إياه عن الأرض لمدة طويلة ، ثم أعاده إلى مكانه وقد اعوج وجه الشاب الذي فتح عينيه برهة... كرر الشيخ العملية معه مرة ثانية وثالثة إلى أن غاب الشاب عما حوله.. ثم غادر الحمام وقد شفي من مرضه » (23) ، كما أن الحمامات مفيدة لعلاج بعض الأمراض الأخرى كالبرص ومصدر تولد القمل ، والحمية وغيرها من الأمراض الظاهرة و الباطنة كما يشرب ماء بعض الحمامات الطبيعية لعلاج بعض الأمراض الباطنية كأمراض الكلى والقولون.

و لا شكّ أن منافع الحمام قد أصبحت أمرا لا يختلف فيه إثنان، بل إن استحسان هذه المنافع أفضى إلى إعادة قولبتها في شكل عبادة صحّية أو كما سماها الكثير من الباحثين بأنها "مزارع الصحّة " (24) ، و مؤسسة الحمام هي من المعالم ذات الأهمية البالغة المكونة للنسيج العمراني للمدينة، التي غالبا ما تتخذ موقعا استراتيجيا داخل الفضاء الحضري للمدينة بجوار الجامع والأسواق المركزية والفنادق والمدارس .

و كأي معلم تاريخي دراسة الحمام مفيدة للوقوف على التقاليد المحلية التي احتضنتها و مازالت تحتضنها البلاد الجزائرية، وبذلك فقد حفظ الحمام عناصر مختلفة من ذاكرتنا الوطنية الجماعية معماريا واجتماعيا، بل وحضاريا بصف عامة.

و يبقى الحمام دليلا آخرا يشهد على مدى التحوّل الكبير الذي عرفته مدن الجزائر عبر تاريخها الطويل البربري و الروماني ثم العثماني ثم الفرنسي، و لا يزال إلى اليوم يعبر عن موروث ثقافي و حضاري جزائري أصيل.

– خاتمة:

– لقد أحدث المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر جروحًا عميقة في بناء المجتمع الجزائري، حيث عملت فرنسا على إيقاف النمو الحضاري والمجتمعي للجزائر مائة واثنتين وثلاثين سنة، وحاولت طمس هوية الجزائريين

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

الوطنية، وتصفية الأسس المادية والمعنوية التي يقوم عليها هذا المجتمع.

و لعل المقاهي و الحمامات إحدى هذه الرموز الاجتماعية التي تبرز بدون شك الطابع العمراني و الوجه الشرقي للمجتمع الجزائري ، من خلال صورة التلاقي و التواصل بين أفراد هذه الأمة في مجال مشترك يتم عبره تمرير الأحاسيس و الانطباعات و آلام المجتمع في ظل سلطة استعمارية أقل ما يقال عنها أنها بربرية، حيث سعت إلى تغير في نمط هذه الأماكن عمرانيا و اجتماعيا و وظيفيا .

هكذا أخضعت الجزائر و عاصمتها مكرهة لتغييرات مفروضة ليس فقط في دور المقاهي والحمامات و لكن كذلك في مدارسها و مساجدها و بيوتها كان من نتائجها بناء مدينة أوروبية، تمتع بها المحتل وأقصى منها سكانها الأصليين، وهمشهم وحرمهم من أي مشروع اجتماعي.كما غير من معالمها، وأخضعها لهندسة غربية مجسدا بذلك مشروعا استيطانيا متكاملا في أبعاده و استراتيجياته تحملت فيه الجزائر بمدنها و شعبها ما لم تتحمله أية دولة استعمارية أخرى،فقد تحملت ازدواجية تعايش مفروضة عليهم، بين سكانها الأصليين، الذين بقوا فيها صامدين في وجه الاحتلال، وبين الدخلاء عليها الذين تمتعوا فيها بكل شيء.

هوامش البحث:

1- جاء في لسان العرب ، على سبيل المثال ن أن " القهوة : الخمر ، و سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام ، أي تذهب بشهوته" ، ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار صادر، ط: 01 ، بيروت (لبنان)، 1971، ص 206.

2- " ووجد بينهم شيئا يتعاطونه على هيئة الشربة الذين يتناولون المسكر و معهم كأس يديرونه و يتداولونه بينهم .....فسأل عن الشراب المذكور فقيل هذا شراب اتخذ في هذا الزمان ز سمي القهوة يطبخ من قشّر حب يأتي من بلاد اليمن يقال له البنّ ، و أن هذا الشراب قد فشا امره بمكة و كثر و صار يباع في مكة على هيئة الخمارات و يجتمع عليه بعض الناس بالرهن و غيره مما هو ممنوع في الشريعة المطهّرة"

أنظر: عبد القادر محمد النصاري الجزيري الحنبلي، عمدة الصفوة في حلّ القهوة ، مخطوطة في معهد المخطوطات العربية ، رقم : م21531، ورقة 28و 29.

3- جمال الدين القاسمي، رسالة في الشاي و القهوة و الدخان ، دمشق ، سوريا ، 1322هـ ، ص 17.

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

4- لذلك نصح الرحالة فاغنر المسافرين الأجانب بضرورة زيارة المقاهي العربية التي تقع عادة في الأحياء الشعبية أنظر : أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 – 1855) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1975، ص 63 .

5- نفسه ، ص 64 ، 65 .

6- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج : 05 [1830-1954] ، دار البصائر ، الجزائر ، سنة 2007 ، ص 213.

7- نفسه، ص 434 .

8 -Papado Poulo ,L'Islam et L'art musulman ,édition citadettes et mazenod , paris,1976, P 301 .

9- القرآن الكريم ، سورة محمد ، الآية 15 .

10- – وليام سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ،ترجمة: عبد القادر زبادية، دار القصبة ، الجزائر ، سنة 2007، ص 115 .

11 – لم يعرف على وجه التحديد الداي الذي بناه ، وإن كان يعتقد بأنه يعود الى القرن السادس عشر للميلاد ، نفسه.

12- نفسه، ص 435، 437، 438.

13- عبد القادر زبادية ، الجزائر في عهد رياس البحر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 م ، ص 45 .

14-L'abbé Edmond Lambert, A travers l'Algérie, Histoire, Mœurs et légendes des Arabes, René Haton libraire, Paris , p 12.

– للإطلاع أكثر على تفاصيل الحمام التركي أنظر: علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص 152.

15- Carepeno(j) , La vie Quotidienne a Rome,1939 , p 293.

16- رجاء العودي عدوني ، الحمام في إفريقيا الدور والخصائص ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس ، نوفمبر 2009 ،ص 210،211.

17- نفسه، ص 212.

18- في العهد التركي كانت النساء يتناولن المشروبات و الفاكهة و حلويات أخرى كحلوة الحلقوم و أصابع العروس كما تعزف الموسيقى **أنظر** : وليام سبنسر ، المرجع السابق ، ص 115. أنظر أيضا: كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، (1510-1541) ترجمة: جمال حمادة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية ،2007، ص 58 .

19-Caom, Cellerier Valery, Rapport sur l'utilisation des sources thermales Algériennes par les indigènes, Carton 10 h 89 (8) .

– السيد سيليري فاليري طبيب مكلف بمهمة من قبل الحاكم العام للجزائر لدى السيد المدير المكلف بالشؤون الأهلية.

– كان الحمام تقليدا دينيا لأنه كان المكان المفضل في عملية طهارة الجسد الذي هو شيء مقدس في ديانتنا الإسلامية.

(*)- أي أن السيد فاليري سليري (Cellerier Valery) كان يتحدث عن 60 سنة قبل مطلع القرن 20 .

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

20- اعتبرت الحمامات أماكن لزيارة المرابطين والأولياء الصالحين، إذ عادة ما اقترنت هذه الزيارات بالتقرب إلى أشخاص (كالطالب مثلا) أنظر: نفسه، ص .01

21- Cellerier Valery, op cit, pp 03, 04.

22- Ibid, p 03

23- أبو العيد دودو ، مرجع سابق ، ص 14 .

24- فضيلة كريم، الحمامات، **موجز تاريخ الحمامات**، ترجمة: حضرية يوسفي، دحلب ، الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، ص 12.

الملاحق :

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

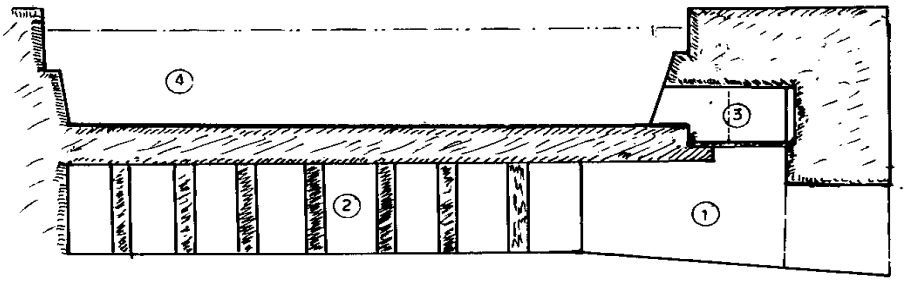

الشكل رقم 1 . نموذج لطريقة تسخين حمام رومـــــــا ني .

1- الفرن
2 - اروقـــة الحرارة
3 - خـــزا ن الماء الحا ر
4 - المســـبح .

الشكل رقم: 01

المصدر: موساوي عربية سليمة، **الحمامات الجزائرية**، رسالة ماجستير ،إشراف الدكتور: لعرج عبد العزيز ، جامعة الجزائر ، سنة 1990-1991، ص 18.

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

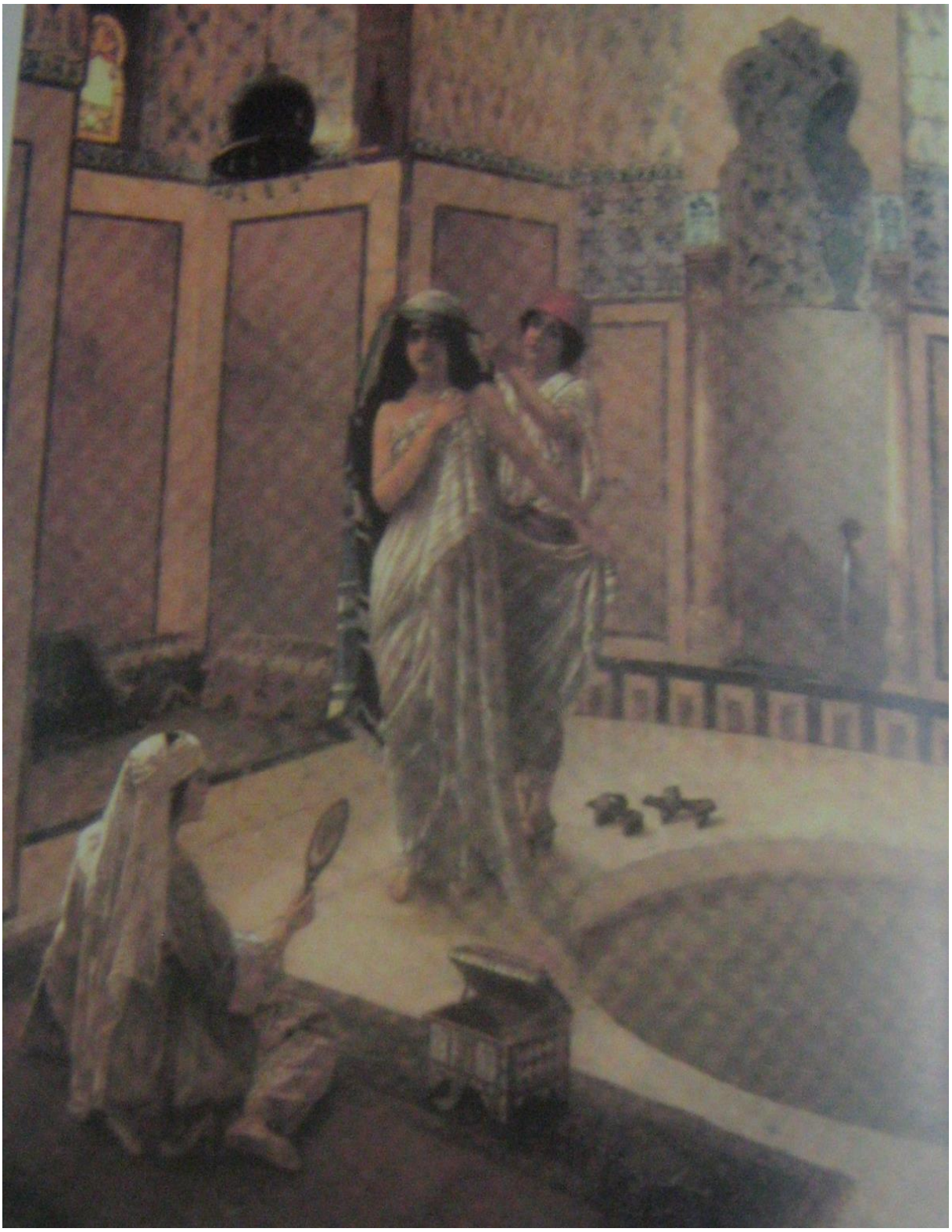

الصورة رقم : 02– حمام بمدينة الجزائر –

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

المصدر: فضيلة كريم، مرجع سابق55.

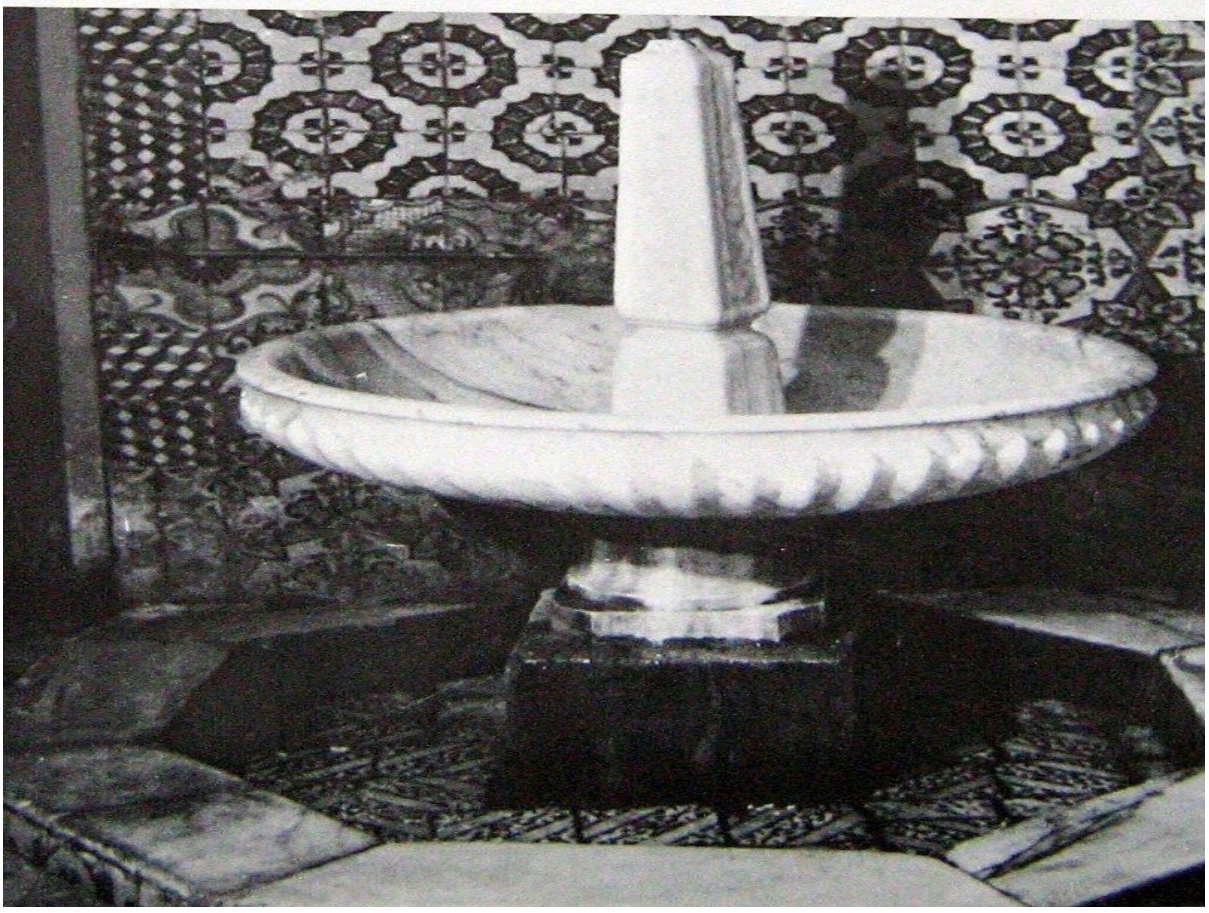

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

الصورة رقم: 03- حمام سيدنا ، مع الصحن أقدم حمام بمدينة الجزائر -

المصدر:- **الجزائر**، سلسلة الفن و الثقافة وزارة الإعلام و الثقافة ، الجزائر، ص96 .

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

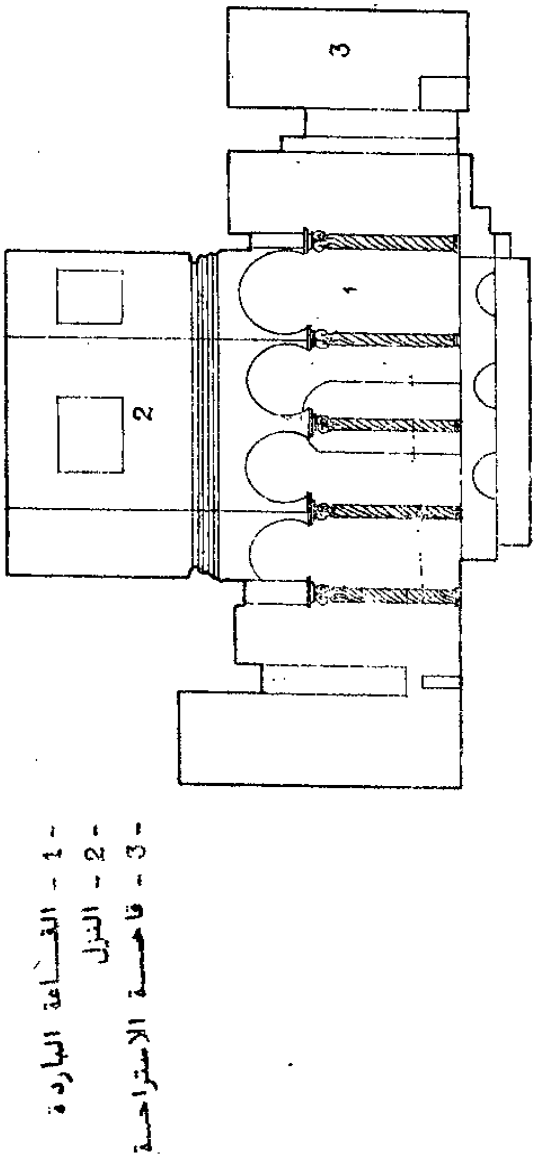

الشكل 23: حمام سيدنا

السلم : 1/200

المصدر: موساوي عربية سليمة، **الحمامات الجزائرية**، مرجع سابق، ص 136.

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

صورة لمقهى بالقرب من إحدى شوارع مدينة الجزائر سنة 1899

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

صورة لمقهى بمدينة الجزائر

تاريخ الارسال: 2019/03/17 تاريخ القبول:2019/05/20 تاريخ النشر 2020/12/22

قائمة المصادر و المراجع:

المصادر باللغة العربية:

- القرآن الكريم ، سورة محمد ، الآية 15 .
- ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار صادر، ط: 01 ، بيروت (لبنان)، 1971.
- عبد القادر محمد النصاري الجزيري الحنبلي، عمدة الصفوة في حلّ القهوة ، مخطوطة في معهد المخطوطات العربية ، رقم : م21531.

المراجع باللغة العربية:

- أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 – 1855) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1975.
- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج : 05 [1830-1954] ، دار البصائر ، الجزائر ، سنة 2007.
- جمال الدين القاسمي، رسالة في الشاي و القهوة و الدخان ، دمشق ، سوريا ، 1322هـ.
- عبد القادر زبادية ، الجزائر في عهد رياس البحر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980م.
- فضيلة كريم، الحمامات، موجز تاريخ الحمامات، ترجمة: حضرية يوسفي، دحلب ، الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007.
- كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، (1510-1541) ترجمة: جمال حمادة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية ،2007.

المصادر باللغة الفرنسية:

-Caom, Cellerier Valery, Rapport sur l’utilisation des sources thermales Algériennes par les indigènes, Carton 10 h 89 (8).

المراجع باللغة الفرنسية:

- Carepeno(j) , La vie Quotidienne a Rome,1939 .
-L’abbé Edmond Lambert, A travers l’Algérie, Histoire, Mœurs et légendes des Arabes, René Haton libraire, Paris .
-Papado Poulo ,L’Islam et L’art musulman ,édition citadettes et mazenod , paris,1976.

الدوريات العربية:

- رجاء العودي عدوني ، الحمام في إفريقيا الدور والخصائص ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس ، نوفمبر 2009 .

الرسائل الجامعية:

موساوي عربية سليمة، الحمامات الجزائرية، رسالة ماجستير ،إشراف الدكتور: لعرج عبد العزيز ، جامعة الجزائر ، سنة 1990-1991، ص 18.